الحسين بن منصور الحلاج

شهيد التصوف الإسلامى

بقلم الأستاذ

طه عبد الباقى سرور

تقوم المكتبة العلمية بالقاهرة بطبع كتاب الحلاج وتنشر هنا مقدمة هذا الكتاب الذى يقدم لأول مرة فى لغة الضاد قصة الحلاج .

كان الحلاج ، نبأ عظيما ، فى أفق التصوف الإسلامى ، ولا يزال الناس يتساءلون عن النبأ العظيم ، الذى هم فيه مختلفون .

هبط به خصومه ، إلى هاوية السحر والشطح الآثم ، المتطلع إلى فناء وخلود عن طريق الاتحاد والحلول ! ! .

وارتفع به محبوه ، إلى أفق البهاء المقدس ، وإلى معارج البطولة الخارقة للناموس ! ؟

فالحلاج عند شعراء ما وراء النهر ، بطل ملحمة الخلود الكبرى ، ورائد الحب الإلهى الذى صعد على معارج الشوق والوجد ، إلى سدرة النور السنى ، حيث يغشى هناك القلب ما يغشى ، من أذواق وهبات ، ومعرفة وتجليات .

والحلاج فى أقلام رجال الاستشراق ، يربطه خط نفسى مضىء بالمسيح عليه السلام ، إنه الشهيد الولى الربانى ، الذى تطلع إلى ميلاد كلمات الله المباركة فى قلبه .

أما رواة التاريخ الصوفى ، فقد دندنوا طويلا ، حول كراماته وآياته ، وتحدثوا فأطالوا الحديث ، عن عجائب مصرعه ، وما اقترن به من خوارق ، ثم ذهب ببعضهم الخيال ، فنسجوا قصة روحية فاتنة ، تدور حول جثته التى أحرقت بعد صلبها ، ثم ألقى فى دجلة برمادها ، فأصبحت كل جرعة ، من ماء

هذا الرماد المبارك ، تنجب شيخاً ، من شيوخ الصوفية فى بغداد ، وتصوغ قطباً من أقطاب المعرفة فى العراق ! ؟

لقد أسرف خصوم الحلاج فى بغضه وتجريحه ، وأسرفت الخلافة العباسية فى اضطهاده وتعذيبه ، وأسرفت إسرافاً جنونياً وحشياً ، فيما أعدت من عذاب غليظ عنيف ليوم مصرعه ، وفيما أقامت من ستار حديدى لحجب سيرته عن الحياة ، وفيما اصطنعت لتشويه تراثه فى التاريخ ! !

فأسرف أنصاره أيضاً فى حبه وتقديسه ، وفى الحديث عن أسراره ونفحاته ، وعلومه وعجائبه ! ؟

ومن ثم انطلق الخيال الأسطورى فى التاريخ ، يوشى هذه الصورة العجيبة المتناقضة ، ويريق عليها مزيداً من الجمال ، ومزيداً من الغموض ! !

ثم أخذ ينسج حولها مشاهد ملونة متنافرة ، تتعاقب وتتواكب ، حافلة بأروع ما فى الدنيا من عظمة الروح والإيمان حينا ، وبأقسى ما فى قاموس الضلال ، من إلحاد ومروق أحياناً .

وبعد مرور قرابة ألف عام على المأساة الحلاجية ، لا يزال النبأ العظيم ، يتساءل فيه الناس وهم مختلفون ! ؟

ولقد فتنت بسيرة الحلاج كما فتن بها غيرى ، وصاحبته طويلا فى تقلباته ومعارجه ، وناجيته وذهبت معه فى انطلاقاته ، وتحسست مافى عواطفه وقلبه وحاولت أن أدنو من شوقه ووجده ، وثورته وتفكيره ، وأن أجد الخط الروحى الخفى ، الذى يربط مابين المتناقضات التى تزخر بها حياة رجل يذيبه ويحرقه الوجد الملح العنيف فينطلق فى الفلوات والمقابر والآفاق ، مذهولا مأخوذا ، حتى يتذوق فى نشوة رياضاته مقاما من مقامات القرب ، ويرى نوراً من أنوار الأنس والقدس ، ويغرق فى بهاء القرب ، وأنوار الأنس ، ويسبح ويسبح فى معارج حبه ، حتى يذهل عن نفسه ، وعن وجوده ، وعن كل مايحيط به ، فلا يرى فى الكون الفسيح ، إلا وجه الله القريب الحبيب الذى يذوب أمام سبحات أنواره ، كل شىء ، فلا يبقى إلا هو ، ذو الجلال والإكرام ، الأول والآخر ، والظاهر والباطن .

وهو مع هذا الوجد المحرق ، وبعد هذا الفناء المذهل ، يطيل التأمل والتفكر ، فى واقع الأمة الإسلامية ، فيرى انحرافها عن رسالتها ، وابتعادها عن عبادتها ، فيطلق صيحة الثورة على الخلافة المنحرفة ، وينشر الدعوة ، ويعد العدة ، لاقامة حكومة الأقطاب الروحانيين ، التى يسوس أمرها الأولياء والابدال والتى تحيل الكون إلى محاريب للصلاة والتأمل ، وذكر الله .

ولقد عانيت من قبل تجربة الدراسات الصوفية ، وأعلم ماتحتاجه من جهد وما يصاحبها من إرهاق ، فهى لاتزال بكرا لم تمهد سبلها ، ولم تعبد طرقها .

وأشهد أننى لم أجد رهقاً ونصبا ، فى دراسة صوفية ، كما وجدت فى دراسة الحلاج ، فقد تمزق تاريخه ، وتبعثرت آثاره ! ؟

وأشهد أيضاً ، أننى لم أجد متاعا للقلب ، وأنسا للنفس ، وزادا للتفكير ، كما وجدت فى هذه الدراسة .

وللحلاج سحر فى كلماته ، وسحر فى حياته ، إنه من الشخصيات التى تملك قوة الإيحاء ، وقدرة الاستهواء ، ولهذا فسواء كنت معه . أو كنت عليه ، فلا تملك نفسك ، من أن تحبه وتهواه .

ولقد حاولت جاهداً ، أن لاتتأثر هذه الدراسة بهذا السحر ، وأن تنطلق إلى هدفها ، مجردة من كل عاطفة ، إلا عاطفة البحث عن الحقيقة ، الحقيقة المجردة لذاتها .

وبعد : فهذا هو الكتاب الأول الذى يصدر عن الحلاج فى لغة الضاد ، نقدم فيه للعالم الإسلامى ، صورة حية ، من صور الحياة الروحية ، فى أزهى عصورها ، ونصور فيه حياة رجل من أئمة هذه الحياة ، الروحية ، بل لعله نسيج وحده فى هذه الحياة الغنية برجالها وأقطابها .

فإن أوفى الكتاب بعهده ، فقدم الوجه الصحيح ، للرجل الذى تساءل الناس عن نبأه واختلفوا فى أمره ، فنسجد لله شكراً ، على ماهدى وألهم .

وإن عجز الكتاب عن الوفاء بعهده فحسبه أنه محاولة أخلصت وجهها لله .

طه عبد الباقى سرور